وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ظافر مقدادي

التأويل العلمي للقرآن الكريم: لا تملوا على الله ما يجب أن يقول

٠٥ November ٢٠٠٧ ٠٤:٤٤ pm

عاش الفيلسوف ديموقريطيس في بلاد اليونان، وحوالي العام ٤٥٠ ق.م قدّم هذا الفيلسوف مفهومه الفلسفي حول تركيب الكون، وهو ان المادة، والكون من حولنا، مبنية من لبنات او دقائق اساسية لا يمكن قطعها الى أجزاء اصغر منها، فاطلق عليها بلغته اليونانية كلمة (Atomos) اي (لامُنجزئ او لامُنقطع) للدلالة على انها الدقائق المادية الاساسية التي لا يمكن تفكيكها الى دقائق اصغر منها. فحرف الـ (A)في بداية الكلمة يعني النفي باللغة اليونانية. والحق يقال ان هذا المفهوم الفلسفي لم يبدأ بديموقريطيس، وانما كان شائعا في اليونان القديمة وفي الهند قبلها بكثير، ولكن الفضل يعود الى ديموقريطيس في اشتقاق المصطلح (Atom) واعطاء هذه الدقائق الاساسية صفة اللاتقطّع واللاتجزّؤ، فالفكرة عنده كانت قائمة على اساس قابلية القطع او لا، وليست على اساس مدى صغر او التناهي في الصغر لهذه الدقائق الاساسية، فلو اراد المعنى الثاني لاستخدم كلمة (موريو) مثلاً، وتعني (مقدار او مثقال ضئيل = ذرّة (ويقابلها بالانجليزية .(Whit)

بقي هذا المفهوم لتركيب الكون مفهوماً فلسفيا محضا ولم يتطور الى مفهوم علمي الا على أيدي العلماء المسلمين في عصر الاسلام الذهبي، وبالذات على يد العالم ابن الهيثم (٩٦٥-١٠٣٩) ميلادي، الذي يُعتبر الآن واضع اسس البحث العلمي كما نفهمه في العصر الحديث. وكما هو معروف فقد درس الفلاسفة والعلماء العرب الفلسفة اليونانية وترجموها الى العربية، وناقشوها وطوروها. ومن بين الموضوعات التي ناقشوها موضوع تركيب الكون والدقائق الاساسية التي يتركب منها، اي (Atom) باليونانية، واطلقوا عليه مصطلح (الجوهر الفرد)، وهو حسب علم الكلام عند المسلمين مثل الاشعري والجويني والباقلاني: الجزء الذي لا يتجزأ (الاشعري)، او حسب) الجويني): الجوهر الفرد له حظ ثابت من المساحة غير موقوف على انضمام غيره إليه .وفي بداية القرن التاسع عشر بدأ علماء الغرب، مثل دالتون وبراون، بالتعرف على اللامنجزئ في المختبرات، خاصة في تجارب ذوبان الغازات في السوائل. وفي نهاية القرن نفسه استطاع العالم ثومسون خلال تجربة اشعة الكاثود ان يكتشف (الالكترون) كجُسيم(Subatomic) ، وبهذا انتهت اسطورة الـ (Atom)كدقيقة اساسية لا تتجزأ. لاحقا وفي بداية القرن العشرين جاء العالم رذرفورد ليضع مفهومه لهذا اللامنجزئ، الذي اصبح منجزئاً، على شكل نموذج تكون فيه النواة في المركز حيث الشحنة الموجبة وغالبية كتلة اللامنجزئ، أما الالكترونات السالبة فتدور حول هذه النواة. ولكن مفهوم الـ (Atom)تغير بعض الشيء بعد ان اصبح منجزئاً، اذ اصبح يعني (الوحدة الوظيفية)، كون الالكترونات والبروتونات والنيوترونات لا تستطيع بمفردها ان تدخل في تراكيب جزيئات اعلى منها، فالالكترون لو خرج خارج اللامنجزئ لأحدث تيارا كهربائيا، ولو تصادم مع بوزترون (الكترون مضاد) لمحق كل منهما الاخر ونتج عنهما فوتون.

عندما وصل هذا العلم الى البلاد العربية قام العلماء العرب بترجمة كلمة (Atom) الى (ذرة)، رغم ان كلمة ذرة لا تُطابق في المعنى كلمة (لامُنجزئ)، فالاولى تحيل على مقدار الصِغَر والثانية تحيل على عدم امكانية التجزئة، وقد ورد

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

عن ابن عباس (رض) ان الذرة هي النملة الحمراء وهي اصغر النمل. هذا هو معنى كلمة ذرة في المعاجم العربية وكتب التفسير. والمراد من كلمة ذرة بالمعنى المجازي، مثل ذرة غبار، هو ضآلة حجمها. لقد كان الأولى بالمترجمين العرب الحفاظ على المعنى الفلسفي والعلمي للمصطلح (Atom) عند الترجمة، فالمعنى هنا يحمل في طياته عدم القدرة على التجزئة. ربما كان الاستعمال الواسع، الادبي والشعبي، لكلمة ذرة قد أغرى المترجمين، فاختاروا هذه الكلمة. ان فوضى ترجمة المصطلحات العلمية الاجنبية الى العربية امر معروف، ولكن ليس هذا موضوعنا الآن.

في النصف الثاني من القرن العشرين سطع نجم (التأويل العلمي للقرآن الكريم)، واخذ مشايخنا وعلماؤنا، حفظهم الله، بتأويل الآيات القرآنية لتتناسب مع اكتشاف علمي ما او ظاهرة علمية. ولا أدري ما هي الفائدة التي ستعود على العالم الاسلامي والبشرية من هذا التأويل (هل سيحصدون جوائز نوبل في الفيزياء والكيمياء والطب؟). هل كانت هناك، من وجهة نظرهم، ضرورة لإثبات أن القرآن عبارة عن وحي من الله سبحانه وتعالى؟ ام انهم ارادوا اثبات ان القرآن صالح لكل زمان ومكان بما فيها زمان العلوم الحديثة؟ لقد دخل الناس في دين الله افواجاً خلال ١٤ قرناً من الزمان، وسيدخلون، وحفظ المسلمون القرآن في قلوبهم وصلواتهم وأدبهم وعمارتهم ولغتهم (بل هو الذي حفظ لهم لغتهم)، وتربع المسلمون على عرش العلوم والمعرفة في عصر الاسلام الذهبي، دون الحاجة الى هذه التأويلات العلمية للقرآن. لماذا لم يذهب ابن الهيثم وجابر بن حيان والرازي والفارابي وابن سينا وغيرهم الى القرآن ليجدوا فيه اجوبة علمية اثناء ابحاثهم العلمية؟ بل لماذا لم يستخدموا كلمة (ذرة) في حين استخدموا مصطلح (الجوهر الفرد)؟ أم ان مشايخنا يعتقدون بأنهم اكثر معرفة بعلوم القرآن منهم؟ هل نسي مشايخنا ان هؤلاء العلماء كانوا علماء في الدين واللغة قبل ان يكونوا علماء في الطبيعيات؟ وان غالبيتهم، ان لم يكن كلهم، كانوا يحفظون القرآن عن ظهر قلب؟ .

يقول الله تعالى في سورة سبأ: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةَ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ، عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِين). هذه الآية تحمل معناها الديني الجميل والبليغ، ككل الآيات القرانية، فهي تعني ان الله سبحانه لا يغيب عنه معرفة اي شيء في هذا الكون مهما كان وزن ومقدار هذا الشيء، سواء كان وزن نملة صغيرة او ذرة غبار او اكبر منها او اصغر. انها آية تخبرنا عن معرفة الله المطلقة. ولكن مشايخنا وجدوا في هذه الآية اعجازاً علمياً مفاده ان القرآن الكريم قد اخبرنا بالاسرار العلمية للذرة قبل ان يكتشفها الغرب. ونسي مشايخنا ان العلم الغربي الحديث لم يتحدث عن الذرة بل عن الـ(Atom)، ونسوا ان هذا الـ (Atom)قد ورد عند ديموقريطيس، وفي الهند قبله، ما يقارب الف عام قبل نزول الآية الكريمة، ونسوا ايضا ان الـ (Atom)تمت ترجمته الى العربية الى ذرة على يد مترجمين من البشر، وهذه الترجمة ليست أمينة، وكان امام هؤلاء المترجمين خيارات أخرى: ماذا لو ترجموا كلمة (Atom) الى (الجوهر الفرد) كما وردت في علم الكلام؟ او الى لامُنجزئ، او كِسرة، او كُسيرة، او قذى، او خردلة، او اية كلمة اخرى؟ ماذا سيكون موقف مشايخنا العلمي من هذه الآية الكريمة؟ هل سيكون الله مخطئاً؟. وماذا عن ان الـ(Atom)، او الذرة كما يرى مشايخ التأويل، في العلوم المعاصرة اصبحت تتجزأ الى دقائق اساسية اصغر منها، فهي تتكون من بروتونات ونيوترونات والكترونات، والبروتونات تتكون من كواركات، وهذه الكواركات لها كواركات مضادة، وكذلك الالكترونات المضادة، والنيوترينو الذي لم يستطع العلماء حتى عام ٢٠٠٧ تحديد كتلته، والنيوترينو المضاد، وماذا عن الميون والتايو والجليون والجرافيتون؟ في الفيزياء الحديثة لم تعد الذرة هي اللبنة الاساسية التي لا تتجزأ، بل هناك عائلتان، الاولى تدعى الفيميونات وهي: الكوارك والالكترون والميون والتايو والنيوترينو، والثانية تدعى البوزونات وهي: الفوتون والجليون والجرافيتون. فكل هذه دقائق أساسية لا تتجزأ. وهذه ليست نهاية العلم والمعرفة، فهناك المزيد. إننا الآن نطرق باباً في اعماق الجزيئات دون–الذرية إن إنفتح أمامنا سنمشي في الشوارع مثل المجانين نتحث مع أنفسنا. ان الله سبحانه يستعمل كلمة ذرة في الايات القرآنية المختلفة حسب المفهوم العربي الثقافي لها، فهي ترد في القرآن في سور سبأ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

والنساء ويونس والزلزلة بنفس المعنى الواضح. ان القرآن الكريم (لسان عربي مبين) اي ذو بيان وفصاحة، فما الداعي لطمس هذا البيان بتأويلات علمية ليست من مقاصد القرآن؟ وتحويل القرآن الى طلاسم لا يستطيع فهمها سوى مشايخنا المؤولين؟ .

المتابع لهذه النزعة من التأويل العلمي للقرآن الكريم يعرف الى اي مدى ذهب مشايخنا وكل من اراد ان يدلو بدلوه في تأويل الآيات. لقد اصبح عدد هذه الآيات كبيرا جدا. وما عليك سوى زيارة مواقع (موسوعات الاعجاز العلمي في القرآن والسنة) على الانترنت، وما أكثرها، حتى تأخذك الصدمة. الآيات القرآنية في هذه الموسوعات تحولت الى مقولات علمية تبحث في علوم التاريخ والكون والطبيعيات والصيدلة والطب والنبات والحيوانات وعلوم الارض والمياه والبيئة وغيرها. لقد تم طمس المعاني الدينية الجميلة والبليغة لمئات من الآيات القرآنية. وماذا تنتظرون بعد ١٠ سنوات من الآن؟ ان يصبح الذي بين أيديكم قرآناً غير القرآن الذي عرفه النبي (ص) واصحابه (رض) وعرفتوه انتم؟ كيف ستفهم الأجيال المسلمة القادمة القرآن الكريم؟ هل ستفهم قرآناً آخراً؟ وماذا عن الدين نفسه الذي يحتويه القرآن؟ هل سيضيع ويحل محله مادة علمية قرآنية؟. لا يوجد قواعد ولا ضوابط لهذه النزعة التأويلية، فهذا التأويل يعج بتحريف وتغيير مواضع الكَلِم .انه يقطع الآية القرآنية عن سياقها في النص القرآني ويفصلها عن (اسباب النزول .(فوضى قائمة بلا احترام لقواعد علوم القرآن والحديث واللغة. تأويل قائم على مبادئ فلسفة العلم في القرن التاسع عشر (أرسطو– السببية– نيوتن)، وهذه الفلسفة إنتهت. إن وضع التأويل العلمي للآيات القرانية، كما يبدو لي، قد خرج عن السيطرة، خاصة في خضم فوضى الانترنت والفضائيات.

لا يوجد في العلوم الطبيعية معارف مطلقة تعكس الحقيقة الموضوعية للظاهرة الطبيعية او الفيزيائية. ففي فلسفة العلوم اساساً يقوم العلماء بإعطاء (مفهومهم) للظاهرة الفيزيائية المدروسة، اي ان القضية قضية مفاهيم (Concepts) وليست قضية حقائق مطلقة. ان العالَم المحيط بنا نشكله نحن حسب فهمنا له، ولكنه ليس بالضرورة ان يكون كذلك موضوعياً. ودائما، وفي كل قانون فيزيائي، يوجد بعض من (ذاتية) الباحث او العالم، وكأن العالم يترك بعض من ظله في الصورة/القانون العلمي. تاريخ البشرية هو تاريخ مفاهيم وليس حقائق نهائية. وسرعان ما تتغير هذه المفاهيم. لقد فهمنا الذرة، او بالاصح اللامنجزئ، بطريقة معينة، ثم غيرنا مفهومنا له لاحقاً، وغيرناه في ما بعد ايضا، وسنغيره في المستقبل. وما يصح على اللامنجزئ يصح على كل شيء في الكون من حولنا. في البحث العلمي نقوم بإختزال الظاهرة التي قيد البحث ونُبسّطها الى ابعد الحدود حتى يكون باستطاعتنا دراستها، وذلك باسقاط وتجاهل الكثير من العوامل التي تدخل في الظاهرة او تؤثر عليها (تجاهل الذي نعرفه، فما بالك بالذي لا نعرفه؟). بعد هذا التبسيط والاختزال والاسقاط والتجاهل نبني ما يسمى بالنموذج الدراسي، وغالبا ما يكون نموذجا رياضيا. وبعد الدراسة، إن نجحت، نخرج بنتائج وقوانين. يا ترى هل تعكس هذه القوانين حقيقة الظاهرة الموضوعية ام تعكس حقيقة نموذجنا البائس؟ هل تعتقدوا ان قوانين نيوتن وأوم وبيرنولي وغيرهم جاءت نتيجة دراسة نماذج رياضية تتطابق تماما مع الظاهرة المدروسة؟ ان حجم التبسيط لا يستهان به في هذه النماذج، ان هذه القوانين قوانين تقريبية ليس الا، لهذا هي تنهار حين تتعرض لاختبار غير مأخوذ في النموذج.

لقد تربع نيوتن على عرش العلوم ٢٠٠ عام، وعندما آن أوان دراسة ظاهرة الضوء (الفوتونات) على اساس قوانينه، تعطلت هذه القوانين .صُدمَ العلماء، فقد وصلوا الى طريق مسدود، ولا بد من ثورة في فلسفة العلوم والعلوم نفسها. جاءت الثورة على يد آينشتاين في النظرية النسبية الاولى والثانية، واصبح نيوتن (آخر المشعوذين). يحق الآن لآينشتاين ان يتربع على العرش فقد اعتقد ان نظرياته وقوانينه شاملة لكل الظواهر الكبيرة والصغيرة، في الكون الفسيح وفي اعماق الذرة. الا ان قضية اشعاع الجسم الاسود، وما نتج عنها من ظهور علم جديد يبحث في الكمّات (Quanta)يسمى ميكانيكا الكم، جاءت لتطيح بآينشتاين الآن. لقد عجزت نظرياته عن تفسير سلوك

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

الكمّات، واصبح آينشتاين (آخر الفيزيائيين الكلاسيكيين). وهذا العلم الجديد، ميكانيكا الكم وما تفرع منه، قائم على مبدأ الـ(لاتعيّن ولاتيقّن)، حيث تسلك هذه الكمّات سلوكاً غير يقيني، وتعمل حسب نظريات الاحتمالات. ان سلوكها احتمالي. صُعق آينشتاين عندما بادره العالم نيلز بوهر بالحقيقة، فرد آينشتاين: (لا أصدق أن الله يلعب النرد مع الكون)، فرد عليه بوهر: (لا تُملِ على الله ما يجب ان يفعله). الكون لا يسير حسب نظام محكم كما كنا نعتقد، وانما يعج بالفوضى. ان الكون سعيد بفوضاه. يبدو اننا الآن بحاجة الى ثورة في فلسفة العلوم، فسلوك الجُسيمات دون–الذرية أمر لا يُصدق، إنها تتحايل علينا وتكذب علينا، وتختفي حين تشاء وتظهر حين تشاء، وكأنها تشعر بخطر قربنا منها، وكأنها (تعي) وتفهم. هل نحن بحاجة لثورة جديدة في الفلسفة بعيدا عن فصل المادة عن الوعي؟ هل المادة والوعي هما وجهان لشيء ما نجهله ما زال مُحتجباً عنا هناك في قاع الكون العميق (Implicate Order)؟ ربما ..ان العلم الآن يبتعد عن فلسفة (أرسطو– السببية– نيوتن) ويتجه بإتجاه الفلسفة البوذية والطاوية والصوفية الاسلامية (الحلولية).(

فيا مشايخنا الأعزاء، اتركوا القرآن الكريم وشأنه، فالعلم يغير ملابسه عند كل لحظة انعطاف حضاري، والمضي في التأويل العلمي معناه نسخ معاني القرآن مرات ومرات ومرات. القرآن ليس كتاباً علمياً، وما فيه من ذِكر ووصف لبعض الظواهر الطبيعية إنما لأغراض دينية، إنها للإنسان الذي يعيش على هذه الارض لينظر حوله ويرى عظمة الخالق في خلقِه لكي يؤمن هذا الانسان ويهتدي ويتحلّى بالفضيلة. اسمحوا لي ايها المشايخ الافاضل ان اقول لكم ما قاله بوهر لآينشتاين: لا تُملوا على الله ما يجب ان يقوله.

د. ظافر مقدادي/ هيوستن
رئيس تحرير مجلة الفينيق الثقافية

This file was downloaded from QuranicThought.com